المدرسة الصديقية
ودورها في النهضة العلمية
والحركة الإصلاحية بمنطقة وادي ميزاب

أ. عبد القادر عزَّام عوادي
جامعة الشهيد حمة لخضر ـ الوادي

إنَّ الحديث عن الحركة العلمية والإصلاحية خلال الفترة الاستعمارية بالجزائر دائما ما يتوقف بنا عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في هذين الجانبين، ولكن نشاط جمعية العلماء جاء نتاج العديد من المجهودات التي تركها وخلفها نخبة من مشايخ وعلماء ومصلحين من مختلف ربوع الوطن الجزائري.

وسوف نتحدث في هذا المقال عن النهضة العلمية والحركة الإصلاحية في منطقة من مناطق الجنوب الجزائري تتميز بنشاطها العلمي والفكري والإصلاحي، وبخصوصيات مذهبية واجتماعية، وأيضا إسهامات كبيرة في خدمة القضية الجزائرية من مختلف الجوانب والنواحي.

ولعل من محاسن الصدف أن نتحدث عن نهضة وادي ميزاب العلمية والفكرية ابتداءً من مكان نشأة المفكر والعالم الجزائري مالك بن نبي عليه رحمة الله، ألا وهي تبسة التي تأسست بها مدرسة تعليمية عصرية اعتبرت من أول المدارس العصرية العربية في تلك الفترة، ولو كتب لها البقاء والاستمرار لكانت رائدة في تخريج نخبة من الجزائريين في مختلف الفنون والعلوم.

ولقد كان لهذه المدرسة العديد من المؤثرات سواء على تبسة أو على منطقة وادي ميزاب، وأيضا كانت سببا في انطلاق أول بعثة علمية ميزابية نحو المدارس والمعاهد التونسية كجامع الزيتونة والصادقية والخلدونية وغيرها من المدارس الأخرى.

ومن خلال هذا المقال سوف نتعرف على الحالة الثقافية والعلمية بمنقطة وادي ميزاب، وعن دور المدرسة الصديقية في بعث نشاط البعثات العلمية نحو تونس، وبروز الحركة الإصلاحية فيها خلال العشرية الثانية من القرن الماضي.

أ- السياسة الفرنسية التعليمية في الجزائر:

منذ أن وطئت أقدام المستعمر الغاشم أرض الجزائر يوم 14 جوان 1830م من سواحل سيدي فرج، وما أن سقطت مدينة الجزائر بيد القائد العسكري (دي بورمون) بعد توقيع معاهدة الاستسلام مع الداي حسين يوم 5 جويلية 1830م، حتى انطلق الجيش الفرنسي في تدمير كل مقومات معالم الدولة الجزائرية، ومسخ الهوية الوطنية والإسلامية والعربية في الجزائر.

لقد كانت السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، ترتكز على أهداف مسطرة جعلت من التعليم الخاص بالجزائريين وسيلة مثالية لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية والتعلق بفرنسا التي لا تقهر، استمرت هذه الوضعية حتى بداية القرن العشرين، الشيء الوحيد الذي ظهر جديدا في الميدان، هي القرارات الوزارية التي أصبحت تتهاطل تلقائيا، ففي مطلع القرن العشرين بدأت القرارات تظهر على الساحة الجزائرية، حيث طالب في 21 مارس 1908 "مؤتمر الزراع الفرنسية بالتضييق على تعليم الجزائريين، وفي08 مارس 1939، أصدر وزير المعارف الفرنسي (شوتان) قرار ينص على اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، ويمنع تعليمها تبعا لذلك في المدارس، وفي22 جويلية 1945 ، أصدرت السلطات الفرنسية قرار يفرض على كل معلمي اللغة العربية معرفة اللغة الفرنسية، كشرط أساسي لتوظيفهم في المدارس، واستهدفت من وراء هذا القرار القضاء على الجهاز العربي وتحطيم كيانه، لأنها تعلم أن معظم أولئك المعلمين لا يحسنون الفرنسية أصلا[1].

أحدثت مثل هذه القرارات، ومثلها التي تلت الاحتلال مباشرة، اضطرابا كبيرا في وسط الجزائريين، وفوضى في صفوف رجال العلم بالجزائر، الذين اختار منهم الكثير الرحيل نحو البلدان الإسلامية المجاورة لحماية

ثقافتهم، كما أن هذه القرارات، أظهرت نوعا من التلاعب بالرأي العام من حيث جدية فرنسا في تعليم رعاياها.

إن الهدف الذي كان يرمي إليه الاستعمار، هو تكوين نخبة مزيفة من المثقفين، مقطوعة عن الجماهير الشعبية، بحيث يشعر أولئك المثقفون بأنهم غرباء بين ذويهم، فتنقطع صلتهم بأبناء البلاد، ويتنكرون للتقاليد والعادات الوطنية ويصابون بما سماه (جول غوتي) (الباقورية العقائدية) وهو نوع من التبعية الفكرية، إذ يحاولون دائما أن يحتذوا حذو الأجنبي، وأن يتقمصوا شخصية أجنبية لا تمت صلة لشخصيتهم الأصلية، ومن نتائج هذه السياسة التعليمية، اضطراب الفكر لدى الإنسان، وعدم توازن آرائه وضياعه وسط الآراء المتناقضة، التي تؤدي إلى افتقاد كلي لعناصر شخصيته، دون أن يستطيع إدراك وتعلم مبادئ شخصية وثقافة المؤثر فيه[2].

لقد كانت مشكلة التعليم بالجزائر مشكلة أجيال الجزائر كلها، ويدفع الأطفال الذين لا يزورون المدارس ثمنها، بحيث لم تتجاوز نسبة التعليم بين أبناء الجزائر على أكثر تقدير 8% من جملة الأطفال الذين هم في سن التعليم، وتقل هذه النسبة كلما صعدنا في سلم التعليم في المراحل الأخرى، ولذلك كانت نسبة الأمية منتشرة بين الجزائريين انتشارا كبيرا، بحيث لم تكن تقل عن 95% بين الرجال وعن 99% بين النساء، وبهذه النسب التي كانت مستفيدة من التعليم، كانت البرامج المسطرة لتعليمها تسير وفق المصالح الاقتصادية والسياسية للإدارة الاستعمارية، ولذلك فإن معظم الأطروحات الموجهة للمتمدرسين الجزائريين كانت تدعوا إلى تمجيد الغرب على حساب الشرق، وتأييد الفكر الأوربي المنتصر على الفكر العربي ، كما كانت تدعوا إلى ضرورة التعلق بمبادئ فرنسا والدفاع عنها كمحاولة لخلق نخبة جزائرية يكون دورها الأساسي هو الدفاع عن الوجود الفرنسي بالجزائر ، والحفاظ عليه والعمل على استمراريته بتلقين مبادئ الثورة الفرنسية لجيل الجزائر، من جهة نظر ضيقة ومحصورة في أن لجنس الأوربي هو أرقى الأجناس على الإطلاق، ولا جدوى لمعارضة أراء منظري السياسة الفرنسية بالجزائر[3].

لقد كان الجزائريون يتعلمون لغاية سنة 1951، بأن أجدادهم هم (الغاليون) وكانوا يتعلمون أيضا بأن العرب المسلمون قد هزموا في معركة (بواتيه)

من طرف (شارل مارتن) ولا شيء آخر عن العرب والمسلمون، بهذه السياسة التعليمية قد يصل الأطفال المتمدرسين مستويات عالية في التعليم وهم لا يعلمون بأنهم يسكنون شمال إفريقيا.

وفيما يخص وضعية التعليم الابتدائي بالجزائر خلال العهد الاستعماري، فإن إحصائية رسمية صدرت سنة 1953 عن التعليم الفرنسي بالجزائر تقول بأن السكان الأوربيون وعددهم مليون نسمة، يزاولون التعليم جميع أبنائهم البالغين سن التمدرس، ويصل عددهم 135000، وأن سكان العرب وعددهم عشرة ملايين يبلغ عدد أطفالهم الذين هم في سن التعليم مليون وتسع وستين ألف طفل، لا يتعلم منهم سوى 266000، والنتيجة أن نسبة الذين حكم عليهم بالإعدام الثقافي تصل 86,5%، ونذكر هنا أن الأوربيين كانت تستقبلهم 11400مدرسة، في حين كان الأطفال الجزائريون يدرسون في 699 مدرسة ابتدائية، مع تميز المدارس الموجهة لاستقبال الأطفال الأوربيين بقوة التجهيز والإمكانيات المادية الموجهة لها إضافة إلى كثرة المدرسين الأحسن في البلد، والشروط الصحية، والمراقبة الطبية الدائمة، مع العطل الصيفية المنظمة عكس أطفال الجزائر الذين لا يستفيدون من أية مزايا اجتماعية(4).

ب- بالأوضاع الثقافية بمنطقة وادي ميزاب خلال الفترة الاستعمارية.

كانت الأوضاع الثقافية بمنطقة وادي ميزاب في جميع فتراتها تقريبا تتميز بالاستقرار والنمو، وذلك راجع إلى تحكم هيئة العزَّابة في هذا الجانب بشكل مباشر تقريبا، وكان المجتمع يتعلم ويتفقه في أمور دينه، وحفظ كتاب الله أو أجزاء منه، وفق التسيير الذي تتماشى به هيئة العزَّابة في هذا المجال، ليظهر في القرن الثامن عشر بدايات النهضة الفكرية والعلمية بالمنطقة بقيادة علماء أفذاذ، واستمرت هذه النهضة الفكرية بالنمو والاستمرار، إلى غاية القرن العشرين أين كانت في مرحلة القوة، وواجهتها العديد من الصعوبات من طرف دعاة الحفاظ على الوضع، وهو ما سنتعرف عليه في هذا الجانب.

وفي الجانب التعليمي كانت هناك المدارس العربية الإسلامية، التي قادها مشايخ النهضة الفكرية والثقافية بوادي ميزاب، والمدارس الفرنسية التي شيدها الاستعمار الفرنسي في إطار سياسته التعليمية.

ب -1- دور هيئة العزَّابة في الحياة الثقافية:

وإن من بين أهم الأعمال التي تكفلت بها هيئة العزَّابة هي التعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وتلاوته الجماعية المستمرة في المسجد من خلال مجالس الذكر، وتشجيع الناس على تلاوته، ورغم الظروف الصعبة التي واجهتها هيئة العزَّابة مع الدخول الفرنسي إلى وادي ميزاب، وأيضاً محاولته التقليص من دورها ومهامها في المجتمع، إلا أنها صمدت وواجهت هذه الوضعية من خلال مجابهتهم للفساد ومحاولة الإصلاح، من خلال المساجد والمنابر (5).

التعليم المسجدي: كما ذكرنا أن التعليم في بادئ الأمر كان كحال التعليم في مختلف مناطق الجزائر، من خلال الكتاتيب أو الزوايا التي كانت منتشرة في كل المناطق، وبفضل هذه المدارس كان التعليم القرآني منتشراً في الأوساط الجزائرية بالرغم من أنه لا يخرج عن الدراسات الدينية، واستطاعت هذه المؤسسات التربوية والتعليمية أن تحافظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية، بمستوى محترم متحدية التعسفات الاستعمارية (6)، ويعتبر التعليم المسجدي من الأنظمة التعليمية القديمة لدى إباضية الجزائر، ويسمى لديهم المحضرة وهو ما يقابله لدى عموم الجزائريين، ما ذكرناه بنظام الكتاتيب، وينقسم نظام التعليم المسجدي لدى الإباضية بمنطقة وادي ميزاب إلى مستويين وهما:

1- **المرحلة التحضيرية**: وهي تمثل المستوى الأول من التعليم، وتبنى هذه المحاضر بجانب كل مسجد على حسب كبر المدينة، فمن المدن من تبني بجانب مسجدها ثلاث كتاتيب أو أكثر، وهذه الكتاتيب يرأس كل واحد منها أحد العزَّابة، والقائم بالتربية والتعليم فيها، ويعينه في ذلك قدماء التلاميذ(7).

وتكتظ المحاضر بالصبيان الصغار لتحفيظ القرآن وتلقين مبادئ التوحيد والعقيدة في فترات العطل، وتعليم الصلاة والفقه إعدادا للصبي القريب من البلوغ خصوصا بالنسبة للذين يأتون بهم أولياؤهم من الجهات التي يعملون فيها خارج ميزاب(8).

ونظام تعليم المحضرة كان كالآتي:

- . قبل آذان الفجر إلى طلوع الشمس.
- . بين صلاتي الظهر و العصر.
- . بين صلاتي المغرب و العشاء.

والحضور في هذه الأوقات واجب على كل تلميذ، ومن تخلف عنه يعاقب[9]، إذن التعليم في المحضرة هو المرحلة الأولى والتي يتم فيها لقاء الفتى مع التعليم قراءة وكتابة، وأهم ما يتلقاه هو حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية[10].

2- **المرحلة الابتدائية أو حلقة (إروان)**: وهي المرحلة الثانية من التعليم، وهي بمثابة التعلم الابتدائي، يؤهل فيه الطلبة لحفظ القرآن الكريم واستظهاره بعد اجتيازهم التعليم في الأولى بالكتاتيب، تعلموا فيها بعض السور من القرآن والخط ومبادئ العقيدة حسب سنهم، فيرتقون تدريجيا إلى مستوى طلبة القرآن الكريم بعد إذن شيخ الحلقة[11]، كما تعد هذه المرحلة كتكوين علمي واجتماعي لهؤلاء الطلبة لالتحاق الأكفاء منهم بحلقة العزَّابة، لمساعدتها في تحمل المهام الاجتماعية والدينية، وفي حال احتياجها لتجديد بعض أعضائها بسبب العجز أو الوفاة، لذلك فعادة ما تسند لهؤلاء الطلبة بعض المهام الدينية والاجتماعية التي يتولاها أعضاء العزَّابة لتدريبهم عليها، مثل إمامة الصلاة أو الأذان وغيرها. أما العلوم التي يتلقونها فهي العلوم الشرعية و العربية أساسا بتوسع أكثر وتعمق، من عقيدة وفقه وحديث وتفسير وأصول الفقه، ونحو وصرف وغيرها، ويخضع هؤلاء إلى مراقبة صارمة في أخلاقهم وسلوكهم من أعضاء العزَّابة، لينظروا ما مدى التزامهم بالفرائض والآداب العامة، حفاظاً على سمعة الحلقة واستعداداً للمهام التي تنتظرهم في المستقبل[12].

ب-2- دور رجال النهضة الإصلاحية في الحركة العلمية والثقافية:

كما ذكرنا أن التعليم في بادئ الأمر اعتمد على المحضرة والمسجد، وكان تعليما دينيا في الغالب، يتلقى فيه الطالب القرآن الكريم ومبادئ اللغة والفقه وغيرها من العلوم الشرعية، مع الحفاظ على الشخصية الإسلامية الإباضية الميزابية للطالب، ونجد أنه خلال بدايات القرن الثامن عشر بدأت تظهر لدينا ملامح الحركة الإصلاحية التصحيحية إذا ما صح القول،

وتزعمها عدد من العلماء والمشايخ الذين كان لهم باع فكري، وزاد ديني، وطافوا بعض المراكز العلمية والدينية المعروفة في تلك المرحلة في العالم الإسلامي، سواء في الزيتونة أو الأزهر أو في مناطق التواجد الإباضي مثل جبل نفوسة، وجزيرة جربة، أو سلطنة عمان وزنجبار، وسنقتصر في هذا العنصر على ذكر ثلاث شخصيات مهمة في بعث النهضة الإصلاحية بمنطقة وادي ميزاب، وكان لها فضل كبير في تغيير الجو العلمي والفكري بالمنطقة، وسنذكرها على الترتيب الزمني لظهورها.

1- **جهود الشيخ أبي زكرياء يحي الأفضلي**[13]: يقول الشيخ محمد علي دبوز فيه :« إن أول عالم مصلح هز وادي ميزاب ليستيقظ من نومه، وأشرق فيه بعلمه وإصلاحه ليقشع عنه الظلام الذي يكلكل عليه، وأخذ بيده ليجتذ به من ضلاله الغارق فيه، هو العلامة الجليل المصلح الشيخ أبي زكريا يحي بن صالح الأفضلي»[14].

بعد رجوع الشيخ الأفضلي من رحلته في طلب العلم من مختلف منابع نشر العلم في تلك الفترة، ركَّز جهوده في وادي ميزاب على نقطتين هامتين وهي:

- ❖ إصلاح أوضاع المجتمع.
- ❖ تربية الأجيال وتعليمهم.

وبدأ نشاطه الدعوي في بلدته بني يزقن، واجتهد في ربط العلاقات المتينة والسليمة مع حلقة العزَّابة التي سوف توفر له مجالا أوسع في الدعوة والإرشاد، وهو الأمر الذي سوف يجعله مقربا للناس بشكل أفضل ومباشر.

فإلى جانب نشاطه الدعوي والاجتماعي تيقن الشيخ الأفضلي أنه لا يمكن تغيير الواقع إلا بنشر العلم والتعليم[15]. ففكر في فتح دار للتعليم، من أجل تعليم الأجيال الصاعدة وتربيتها على القيم الصحيحة، وبالفعل فتح مدرسة وهي في الأصل مسكنه، فتحولت بمثابة قسم للدراسات العليا بمنطقة وادي ميزاب[16]، وكثُر عدد طلبة العلم بمعهده وتوسعت حلقته العلمية، وأمه الطلبة من مختلف قرى وادي ميزاب من أجل الاستزادة من علمه، وهكذا تفرغ الشيخ الأفضلي للتعليم بمنطقة بني يزقن، وتخرج على يديه علماء أفذاذ حملوا بعده راية العلم والنهضة منهم: الشيخ ضياء الدين الثميني والذي

سوف نتعرف عليه فيما بعد باعتباره خلفاً للشيخ الأفضلي في بعث النهضة، وأيضاً الشيخ إبراهيم بن بيحمان، وحمو والحاج اليسجني[17]، وأبو يعقوب يوسف بن عدون[18]، وبدأت حركة الإصلاح والتغيير في منطقة وادي ميزاب على عهد الشيخ الأفضلي، مبنية على تعليم الأجيال وتربيتهم وتوعيتهم، فكانت لبنة أولى في الطريق القويم، وصرخة في آذان الناس للنهوض والاستيقاظ[19].

2- **جهود الشيخ عبد العزيز الثميني**[20]: ولأنه تلميذ الشيخ الأفضلي فلم يكن ذو منهج بعيد عن منهج شيخه في الدعوة والإرشاد، ولكون عصره أيضاً هو نفسه عصر الشيخ الأفضلي فكانت نفس الظروف والأسباب التي وجهوها متشابهة من حركة الجمود والفكر المحافظ الذين كان معارض للتجديد والفكر الإصلاحي.

ومن مميزات الشيخ الثميني أيضاً أنه كان من رجال المال والجاه في منطقة وادي ميزاب، فقد أغناه الله من فضله، وكان ذا صاحب مزارع وأموال ساعدته في مسيرته الإصلاحية والعلمية[21]، ولاحظ شيخه الأفضلي سمات النبوغ والتفوق لديه، مما جعله محل الثقة والمشورة عنده، فقدمه للتعليم في معهده مساعدا ومتدربا على تكوين الطلبة الوافدين إليه من قرى ميزاب المختلفة، ونصحه شيخه بفتح معهد خاص به يتولى فيه تسيير حلقات العلم، ويسعى بدوره إلى نشر رسالة العلم والإصلاح وتكوين الأجيال وتحضيرهم للمستقبل، فبعد وفاة شيخه الأفضلي كانت حلقة الشيخ الثميني العلمية ومعهده العلمي في ميزاب، هي الوريث الشرعي التي تحملت رسالة الإصلاح ونشر التعليم بالمنطقة، حيث استقطبت الطلبة من مختلف مناطق ميزاب، وكان له الفضل في تكوين أجيال عديدة حملت لواء الإصلاح والتغيير والتعليم في منطقة وادي ميزاب والجزائر بعده، وبرزت أسماء لامعة منها: الشيخ بالحاج بن كاسي[22]، والشيخ سليمان بن عيسى[23]، والشيخ محمد بن ادريسو[24] والعديد من المشايخ الآخرين[25].

وإلى جانب تصدره للتعليم فقد عكف الشيخ الثميني في مجال الكتابة والتأليف، وذلك عندما انقطع عن رئاسة مجلس العزَّابة، ولازم بيته لمدة 15 سنة لا يخرج منه إلا إذا حزب الأمة أمر، ولقد ترك العديد من المؤلفات

منها: كتاب "النيل" في الفقه، و"معالم الدين" وهو كتاب في الفلسفة الكلامية وأصول الدين، وأيضاً كتاب "الورد البسام في رياض الأحكام" وهو خاص بالقضاء والعديد من المؤلفات المتنوعة والمختلفة في شتى العلوم والفنون[26]، وكان الشيخ عبد العزيز الثميني رحمه الله عالما عاملا، حيث عمل من أجل مجتمعه في كل المجالات التي كان يعاني منها، فكان مصلحا اجتماعيا، وكان معلما ومربيا، وفقيها عالما، وبالإضافة إلى ذلك واجه أنصار الباطل والفساد بكل قوة وحزم، ثم تفرغ رحمه الله للتأليف والبحث العلمي عندما أدرك أن هذا الجانب الهام قد غفل عنه الكثيرون في تلك المرحلة الهامة.

3- **جهود الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش "قطب الأئمة"**: نستطيع القول أنَّ الشيخ الأفضلي والشيخ عبد العزيز الثميني قد مهَّدا الطريق للصحوة الدينية والإصلاح الاجتماعي والثقافي في منطقة وادي ميزاب، وأنهما لم يعيشا فترة مهمة من تاريخ الجزائر بصفة عامة ومنطقة وادي ميزاب بصفة خاصة، وهي فترة الاحتلال الفرنسي ودخول القوات الفرنسية إلى الجزائر، ووصولها إلى وادي ميزاب، وما طرأ من تغيرات في عديد المجالات سواء الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية، وهو ما عاشه الشيخ اطفيش قطب الأئمة، فقد كان الشيخ رحمة الله منذ مرحلته العلمية الأولى يحمل هم الدعوة والإرشاد والإصلاح، من خلال ما تشبع به في معهد شيخه عبد العزيز الثميني[27]، وإنه يصعب الإلمام بجهود الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في خدمة المجتمع الميزابي، وجهوده الإصلاحية والعلمية، ولكن سنتطرق إلى جهوده في مجال التعليم ونشر العلم بالمنطقة، فلقد أفنى عمره في هذا الميدان سواء في التدريس أو تكوين الطلبة والعلماء، وأيضاً في مجال البحث والتنقيب والكتابة والتأليف، فيعد رحمه الله موسوعة زمانه، حتى أطلق عليه لقب قطب الأئمة، وتسمية أبي النهضة الإصلاحية وواضع أسسها العلمية[28]، وساعده في هذا الميدان منذ صغره أخوه الأكبر إبراهيم الذي طاف عدداً من البلاد الإسلامية وجلب منها نفائس الكتب والمخطوطات، فاستفاد منهم الشيخ اطفيش، وشمّر عن ساعديه معتمداً على نفسه فيما بعد في طلب العلم، وفتحت له خزانة الشيخ عبد العزيز الثميني أيضاً حيث

استفاد منها ونهل من معينها العلمي والفكري، ومن مباركة الله له أيضاً أنه تزوج ابنة عالم وهو الحاج محمد بن عيسى ازبار[29][30]، حيث فتحت له زوجته مريم خزانة أبيها التي ورثتها عنه، فهكذا فتحت له خزائن العلم منذ بداية مشواره[31].

وأنشأ القطب في سنة 1837م، معهدا للتدريس في بني يزقن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزَّابة، وقد تعرض للنفي من بلدته إلى (بنورة)، ومكث بها حوالي عشر سنوات ألَّف فيها كتبا كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلدته خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في سنة 1878م.

كان القطب رحمة الله عليه متفرغا للتعليم فكانت دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال، ما عدا يوم الجمعة، ثم يزيد دروسا في المساء بعد العصر، وكان يدرس في الليل الغرباء والطلبة النجباء والمتفوقين، مع تخصيص الليل للتأليف والإفتاء[32]، فقسم معهده إلى ثلاث مستويات وهي ابتدائي ومتوسط وعالي، بحسب الأعمار والرصيد العلمي للطالب، وبحسب مؤهلاته وجديته أيضاً، وكان يحرص على أن يتولى التدريس بنفسه جميع المستويات، ويتولى الإشراف على طلبته ومتابعة أخلاقهم وسلوكهم، فكان معهده يعد قبلة للطلبة من جميع نواحي ميزاب وخارج ميزاب، فكان عامرا ومزدهرا، واستمر عطاءه في هذا المعهد لمدة تزيد عن السبعين سنة، لم يتوقف عن التدريس فيه ولم ينقطع إلا نادرا، وتخرج منه علماء أفذاذ حملوا بعده راية الإصلاح والتعليم بكل صدق وإخلاص من أمثال: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد اطفيش، والشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، والشيخ صالح بن عمر لعلي، والشيخ إبراهيم بن عيسى الأبريكي[33]، والبطل المجاهد سليمان الباروني باشا الليبي[34]، والكثير من الشخصيات[35].

وللشيخ مواقف هامة في مواجهته للاستعمار الفرنسي كنا قد ذكرناها في المبحث الأول من هذا الفصل، وكانت له مراسلات لحكامه يحتج على اضطهاد المسلمين ويطالب بالرفق بهم[36].

تحمل زعما الإصلاح في واي ميزاب كل العوائق والحواجز التي كانت تقف في وجههم من أجل أداء رسالتهم الإصلاحية، وتزعموا النشاط التعليمي والنهضوي بالمنطقة، وكونوا أجيالاً من العلماء والشخصيات التي سوف تحمل الرسالة على أكمل وجه، وتكمل المسيرة العلمية والإصلاحية في كامل قرى وادي ميزاب، وتحارب على الصعيدين، المحلي ضد الجمود والطبقة التي تحاول ان تبقي المنطقة على ركودها وجمودها، وتحارب أيضاً الترسانة الاستعمارية البغيضة التي تسعى دوما إلى تثبيط كل محاولات الإصلاح التي تظهر في الجزائر، وتحاول دائماً أن تبقي المجتمع الجزائري في ركوده وجهله ونومه.

ونجد أن الاستعمار الفرنسي لما دخل إلى وادي ميزاب طبق سياسته مثلما يفعل في كامل مناطق الجزائر، ومنها السياسة التعليمية، والتي لم يكن الهدف منها تثقيف المجتمع الجزائري أو تعليمه، إنما خلق طبقة متعلمة ولو قليلا من أجل أن تخدم أهدافه ومصالحه في المناطق التي يستقر فيها.

ب-3- التعليم الفرنسي:

منذ الإلحاق الفرنسي لوادي ميزاب سنة 1882م، شرعت الإدارة الفرنسية في فتح مدارس لها في قرى وادي ميزاب، فبنيت مدرسة غرداية الفرنسية من 1886م/1889م، وطبقا لأمر 1892م، فقد فتحت مدرسة العطف ودرس فيها أول معلم ميزابي باللغة الفرنسية وهو عمر بن باحمد بالولو، وفتحت المدرسة الرسمية ببني يزقن أبوابها في يوم 15 أكتوبر سنة 1892م، وأما مدرسة مليكة فلقد فتحت في سنة 1907م[37]، وفي الحقيقة أن الميزابيين في بادئ الأمر لم يستسيغوا هذا التعليم فعارضوه وقاطعوه وامتنعوا من إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، لأنهم رأوا أن الهدف من هذه المدارس هو مسخ الشخصية الإسلامية وتخريب مقوماتها، وأن فرنسا لم تكن تقصد من فتح هذه المدارس تثقيف الأبناء وإنما هدفها في ذلك هو محاربة الإسلام واللغة العربية، فأتخذ الأهالي من أجل ذلك موقفا سلبيا، ولم يُدخلوا أبنائهم إلى المدارس الفرنسية[38].

ولما تفطنت الإدارة الفرنسية إلى هذا الأمر قامت بإجراءات ضد الأهالي، فكانت لا تسمح لتلميذ بمغادرة المنطقة إلا برخصة، وكانت تأمر

كل رئيس عشيرة أن يرافق إلى المدرسة بنفسه، يوم الدخول المدرسي، تلاميذ العشيرة المسجلين في ذلك الموسم، وظل سكان بني ميزاب يتجنبون إرسال أولادهم إلى هذه المدارس، فنلاحظ أن عدد التلاميذ في مدرسة بني يزقن مثلا، يستقر حول الخمسين تلميذا في السنوات:1908/1909/1910م، وإلى جانب مدارس التعليم العام، فلقد أنشئت الإدارة الفرنسية عام 1896م، مدرسة للتعليم المهني بغرداية، تدرس فيها النجارة، ثم أضيف إليها سنة 1909 النقش على النحاس(39).

ولكن الموقف الميزابي لم يستمر على هذه الحالة من القطيعة، وإنما تغير الوضع عندما أدرك الميزابيين أهمية التكوين الفرنسي وحاجة أبنائهم إليه ليدخلوا معترك الحياة الواسعة ويواجهوا المخططات الاستعمارية، في مجالات الإدارة والتجارة والاقتصاد، وذلك راجع إلى أسفارهم المتعددة نحو بلدان الشمال واحتكاكهم بالأوضاع العامة هناك، ففطنوا إلى المستوى التعليمي الهزيل الذي يدرس في مدارسهم، وضعف التحصيل العلمي من جراء ذلك، فطالبوا برفع المستوى التعليمي وتحسين الأداء والتجهيزات، لتواكب المدارس في الشمال، ولكن السلطات الفرنسية لم تلبي طلباتهم و أبقت التعليم على حاله وفي ظروفه السيئة(40).

ولم يتوقف الأمر عند المدارس الفرنسية فقط، فقد أُنشأت مدارس الآباء والأخوات البيض، التي كان يقودها الكاردينال لافيجري في الجزائر، وهي عبارة عن مؤسسات تدعو للمسيحية، وكان مقرهم في بادئ الأمر في متليلي سنة 1883م، ثم تحولوا إلى غرداية في سنة 1884م، ووقف الأهالي ضد هذه المدارس وكان في مقدمتهم الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، الذي حارب هؤلاء حرباً إعلامية في منطقة وادي ميزاب، ودعا إلى مقاطعتهم، وعدم التسجيل في مدارسهم، ففي أكتوبر 1896م، نجد الأب قريزي يشتكي من مغادرة التلاميذ لمدرسته، وفي سنة 1893م، أنشئ المشغل الأهلي لغرداية وتديره الأخوات البيض، كان يستقبل حوالي أربعين فتاة، أغلبهن من المذابيح، يتعلمن الخياطة والغزل والنسيج(41).

فنجد أن أعداد التلاميذ المنتسبين إلى المدارس الفرنسية، قد ذهب في الازدياد والتطور أكثر، فنجد مثلا أنه في سنة 1914م بلغ عدد التلاميذ

المنتسبين للمدارس الفرنسية (465) تلميذ، ليصل هذا العدد في سنة 1920م إلى (615) تلميذ، وتراوح في هذه النسبة[42].

وزاوج الميزابيون بين التعليم العربي الإسلامي وبين التعليم الرسمي الفرنسي، وذلك من أجل مواجهة الاستعمار الفرنسي ومجابهته عن طريق لغته وثقافته، وقام الميزابيون أيضاً فيما بعد بتأسيس المدارس والمعاهد والجمعيات الثقافية التي كان لها الأثر الحسن في الحياة الثقافية والفكرية، وفي النهضة الإصلاحية بالمنطقة.

ت- حالة التعليم بمنطقة وادي ميزاب خلال فترة الاستعمار الفرنسي:

منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر كان يهدف إلى طمس كل المعالم الدينية والتعليمية بالجزائر، فلقد قام بهد المساجد والمؤسسات التعليمية منذ وطأت أقدامه أرض الجزائر، وحورب رجال العلم والأئمة وشيوخ الزوايا وحدد نشاطهم الديني والثقافي، وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة، وقامت السلطات الفرنسية أيضاً بالقضاء على الأوقاف التابعة للمؤسسات التعليمية.

وبالرغم من المعارضة الشديدة التي قادها عدد من الشخصيات الدينية الهامة بالجزائر، كالمفتي محمد بن العنابي[43]، وحمدان خوجة[44]، وبوضربة وغيرهم من العلماء الذين راسلوا السلطات الفرنسية واستنكروا هذه الأفعال الشنيعة التي يقوم بها العسكر الفرنسي بالجزائر[45].

أما في منطقة وادي ميزاب فلقد كان للمحاضر أو الكتاتيب دور كبير في المجال التربوي والتعليمي، رغم ضعف الإمكانات والوسائل، إذ يكفي أن ينحصر فضلها في أنها كانت تعنى عناية خاصة بتربية النشء الصاعد تربية إسلامية[46].

كانت هذه المحاضر تلقن للصبيان القرآن الكريم ومبادئ الكتابة والقراءة وعلوم التوحيد والفقه، ويتولى التعليم فيها ثلاثة من أعضاء حلقة العزَّابة، يكونون حافظين للقرآن الكريم عالمين بالفرائض الدينية، وليس هناك سن معين لمن يريد الانتساب لهذه المحاضر، ولقد كان المشايخ يدرسون في

حلقات، فنون الشريعة واللغة العربية وغيرهما، للتلاميذ الكبار، إما في دور خاصة أو في المسجد[47].

لكن تجدر الإشارة أن هذا التعليم لم يحظ به عامة أفراد المجتمع، بل اقتصر على فئات فقط، وذلك للظروف المعيشية الصعبة التي جعلت الناس تنشغل بالكسب وبالسعي وراء لقمة العيش العسيرة المنال على حساب اشتغالها بتحصيل العلم، بالإضافة إلى حالة الجهل السائدة وقلة الوعي لدى عامة الناس، مما جعلهم لا يدركون قيمة العلم وأهميته.

بالإضافة على اقتصار هذا التعليم على الرجال دون النساء، فتحرم المرأة منه للمعتقدات الاجتماعية البالية السائدة، التي لا ترى ضرورة في تعلم الذكر فكيف بالأنثى، فيكتفون بتعليمها فرائض الدين من الطهارة والصلاة والصيام وتحفيظها قصار سور القرآن، وعادة ما تأخذ هذه المبادئ على أحد الأقارب كالأب أو الأخ، أو من خلال الاستماع لدروس المساجد[48].

وإلى جانب المحاضر والكتاتيب الدينية، أنشأت الإدارة الاستعمارية مدارس نظامية بعد احتلالها للمنطقة، حيث نجد أن مدرسة غرداية فتحت 1889م، ومدرسة بالعطف سنة 1892م، ومدرسة بمليكة عام 1907م، وهكذا انتشرت المدارس الرسمية الفرنسية بمنطقة وادي ميزاب.

وقد كان الأطفال البالغون سن الدراسة يجبرون عليها قهرا وكان أولياؤهم يشتكون من هذا التصرف، ويحاولون تهريب أبنائهم من ميزاب، لذلك كانت السلطات الفرنسية متشددة في مغادرة الأطفال من المنطقة إلا برخصة من طرفها[49].

ولم يتقبل الميزابيون التعليم الفرنسي وفكرة إدخال أبنائهم في هذه المدارس، فعارضوها وقاطعوها، وامتنعوا عن إرسال أبنائهم إليها، حيث كانوا يرون أن الهدف من هذه المدارس هو مسخ الشخصية الإسلامية وتخريب مقوماتها، وأن فرنسا لم تقصد بفتحها تثقيف الشعب وتعليمه بقدر ما قصدت محاربة الإسلام واللغة العربية، لذلك كانوا يحاولون تهريب أبنائهم إلى مدن الشمال، أو إرسالهم ضمن البعثات العلمية الميزابية بتونس[50].

فكانت حالة التعليم بمنطقة وادي ميزاب محفزة على الهجرة، فالتعليم المسجدي كان فرصة لطلبة العلم من أجل إكمال دراستهم والاستزادة من العلوم والمعارف في الزيتونة أو في المعاهد التونسية المتعددة هناك في شتى العلوم النقلية أو العقلية، وأما التعليم الفرنسي فلقد كان منفرا للعديد من الطلبة فاختاروا السفر ضمن البعثات العلمية على أن يبقوا في ميزاب وينتسبوا للمدارس الفرنسية.

ت -1- المدرسة الصدِّيقية بتبسة ودورها في انطلاق البعثات العلميَّة:

تعد المدرسة الصديقية بتبسة من أبرز مظاهر التواصل والتكافل والتآزر بين الإباضية والمالكية بالجزائر، فكانت لبنة تشارك فيها كل من التبسيين والميزابيين من أجل رفع حالة الجهل والأمية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

فأنشأ كلٌّ من عبَّاس بن حمانة[51] والشيخ الحاج بكير العنق[52] وجملة من الميزابين والتبسيين الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي في سنة 1913م[53]، ولقد ترأسها الشيخ عباس بن حمانة، وكان أمين مالها هو الشيخ الحاج بكير العنق[54].

وكانت المدرسة الصديقية التي أسَّسها عباس بن حمانة بأموال أحد تجار وادي ميزاب الكرام الذين استوطنوا تبسة منذ أربعة أجيال كاملة، هي التي فتحت السبيل لتأسيس المدارس الحرة، وكانت الأولى من نوعها في الجزائر، ومن محاسن الصدف التي صادفت الشيخ عباس بن حمانة في هذا الطريق الإصلاحي أن التجار الميزابيين الذين كانوا معه جلهم من تلاميذ الشيخ امحمد اطفيش القطب والشيخ الحاج عمر بن يحي[55]، لذلك كانوا من أكبر أسباب نجاح هذه الحركة المباركة، فآزروها بأنفسهم وأموالهم، وأسرعوا إلى تسجيل أبنائهم بالمدرسة، ومن بين هؤلاء التجار نجد: الحاج بكير العنق، وأخوه الحاج عمر العنق، ومحمد بن بكير التاجر، والحاج بكير بن عمر المرموري وأخواه عيسى وإبراهيم، وهما اللذين تبرعوا بدارهم الجديدة الأنيقة الواسعة، فكانت المدرسة الصديقية ومقر الجمعية الصديقية، وهي في مكان جميل في تبسة يسمى (ساحة الجمارك)[56]، وكانت مبنية على أربعة أدوار،

وبالجملة فهي أنضر وأزهى قصور تبسة[57]، وكانت مؤثثة تأثيثا عصريا راقيا بالمناضد، والخرائط ووسائل التعليم العصري كلها، وكانت تحتوي على مكتبة فيها كل الكتب اللازمة للأستاذ، وعلى صيدلية ومطبخ، وكان برنامجها، ومناهجها عظيمة، تراعى فيها ترتيب المواد الدراسية، ومقدارها ومناهجها مدروسة حسب الفئات العمرية[58].

وأما عن منهاجها التعليمي فكان حديثا يشمل مواد القرآن والتربية الإسلامية والأخلاق والتاريخ الإسلامي بما فيه تاريخ الجزائر، وكذا الجغرافيا والمواد الرياضية، إلى جانب التربية البدنية واللغة الفرنسية مش[59]، وينص برنامج المدرسة على ثماني سنوات مدة الدراسة، ومن حق التلاميذ القادمين من بعيد في نظام هذه المدرسة الاستفادة من إقامة داخلية، على أن يدفع التلميذ مبلغا ماليا بسيطا [60].

ولما علم أذناب الاستعمار بالمدرسة وبنتائجها العظيمة التي بدأت في الظهور، فقامت قائمتهم، وأسرعوا إلى قسنطينة فأبلغوا الحاكم على المنطقة، وقاموا بالوشاية بين كل أوساط المعمرين هناك، وعلموا أن مثل هذه المدارس ستجعل الشعب الجزائري يستفيق ويعلم حقوقه وسوف تكون نهايتهم، فأسرع والي قسنطينة وأمر بغلق المدرسة، ونفي المعلمين وحل الجمعية الصديقية بعد مرور ستة أشهر على ميلادها، وأسرو في أنفسهم شرا كبيرا للشيخ عباس بن حمانة رائد الإصلاح في منطقة تبسة[61].

وبعد هذا القرار الجائر ثارت ثائرة عباس بن حمانة، وثار معه أصدقائه في الجمعية وقاموا بطرح الأمر على الوالي العام وحكام الجزائر، ثم رفعوا أمرهم إلى باريس، وتمت مناقشة الموضوع في مجلس النواب الفرنسي ولقد استمالت قضية غلق المدرسة استعطاف الكثير من النواب المنصفين، وهو ما زاد من حنق وغضب المتعصبين من المستعمرين وتصميهم في القضاء على بصيص الأمل في نهضة تبسة والجزائر ثقافيا وعلميا، ووصل بهم الأمر في التدبير للقضاء على رأس هذا المشروع وهو الشيخ عباس بن حمانة[62].

وبعد مدة وجيزة من غلق المدرسة الصديقية، بدأت دسائس الاستعمار في تدبير خطة للقضاء على الشيخ عباس بن حمانة زعيم النهضة بالمنطقة،

وبالفعل فقد استطاعوا الوصول إليه بمزرعته واغتالوه عن طريق ضربه على رأسه بالفأس، حينما كان بمزرعته يطالع جريدة الزهرة[63]، فاستشهد رحمه في يوم 16 جويلية 1914م[64].

كان الاستعمار يظن أنه بقضائه على الشيخ عباس بن حمانة سوف يقضي على الحركة العلمية والإصلاحية التي بدأت تتغلغل في نفوس الجزائريين، فبعد الحادثة مباشرة قام التبسيون والميزابيون بإرسال أبنائهم إلى تونس الخضراء في أول بعثة علمية ميزابية[65].

ت -2- نشأة أول بعثة علمية ميزابية إلى تونس:

يمكن القول أن العامل المباشر في ظهور أول بعثة لإباضية الجزائر في تونس هو ما وقع للمدرسة الصديقية العصرية بتبسة، بعد وأدها في مهدها بطريقة مقيتة كما رأينا، فكان رد فعل أولياء التلاميذ هو التفكير الجدي والعزم الأكيد على تحدي هذه الخطوة الاستعمارية بإرسال أبنائهم إلى تونس لاستكمال دراستهم في مدارسها العربية العصرية المماثلة للمدرسة الصديقية، التي أرادت السلطات الاستعمارية أن تحرم أبناءهم من الدراسة والتعلم فيها.

وقبل هذه البعثة بسنة واحدة كان الشيخ إبراهيم أبي اليقظان[66] متواجدا هناك، وكانت فكرة الخروج من وادي ميزاب تراوده منذ فترة حينما طرحها على زملائه من الطلبة في سنة 1912م، وهم يدرسون في حلقة شيخهم الحاج عمر بن يحي، ولكن لم يوفق في إقناع رفقائه، فقدر الله وأن مرض من عينيه فكان السبب المباشر للسفر نحو تونس بحثا عن العلاج وكان ذلك في سنة 1913م، وما إن نزل هناك حتى التحق بجامع الزيتونة وواظب على حضور حلقات كبار المشايخ هناك، وهنا تواصل أولياء تلاميذ المدرسة الصديقية مع الشيخ أبي اليقظان من أجل التولي والإشراف على هؤلاء الطلبة ومتابعة دراستهم فهم لا يزالون في مرحلة دراستهم الابتدائية وبحاجة إلى الرعاية والمراقبة، فوافق الشيخ أبو اليقظان على هذا المشروع مباشرة وتشجع للفكرة، ورأى أن حلمه الماضي بدأ في التحقق[67].

وضمت البعثة في أول الأمر حوالي أربعة عشرة طالب فمن المدرسة الصديقية نجد: دحمان بن الحاج بكير المرموري، وحمو عيسى المرموري،

وسعيد بن الحاج إبراهيم المرموري ومحمد بن مسعود المرموري ويسوف بن الحاج بكير المرموري، ثم انضم اليهم طلبة جدد ميزابيون كانوا متواجدين في تونس وهم بوهون بن قاسم الزيتون وأخوه بكير ومحمد بن عمر بوعصبانة ويحي بن الحاج يوسف مزوز وإبراهيم بن حمو بغباغة وأخوه أحمد و يحي بورورو من غرداية ومحمد بن إبراهيم المفنون من بني يزقن ومحمد بن الحاج عمر العنق(68).

ويمكن أيضاً أن نشير إلى الدور البارز الذي لعبه عبد الحميد بن باديس من خلال رحلته باتجاه جامع الزيتونة سنة 1908م، حيث كانت هذه الرحلة هي الجسر الذي عبرت عليه جل البعثات العلمية التي تتابعت على تونس بعد هذه الرحلة(69)، ولعل فكرة البعثات العلمية الميزابية التي كان يحلم بها الشيخ أبو اليقظان تولدت لديه من خلال ما كان يتابعه من أحداث حول جامع الزيتونة وما يشهده من نهضة فكرية وعلمية هناك.

وإن لجامع الزيتونة المعمور دور كبير في استقطاب الطلبة الجزائريين إلى تونس نظرا للمكانة العلمية المرموقة التي يحتلها في نفوسهم(70)، وكان طلاب العلم من الجزائريين يرون في طلب العلم من الزيتونة واجبا لا بد منه، كما يمثل ضرورة فرضتها ظروف الاحتلال، وأيضاً من العوامل التي جعلت الطلبة يستقرون في رحلتهم العلمية بتونس تحديدا في رحاب جامع الزيتونة، طبيعة البرامج والمناهج المدرسة والمعتمدة في الجامع، وهي البرامج والمناهج التي استقرت بعد سلسلة من الإصلاحات التي نادى بها الطلبة كما نادى بها شيوخهم، فضلا عن وزن شيوخ الجامع وكفاءاتهم الكبيرة(71).

هكذا كانت الأوضاع الثقافية عاملا مهما ومباشرا ومميزا في حركة الهجرة نحو البلاد التونسية، وخاصة نحو المعاهد العلمية وجامع الزيتونة من أجل طلب العلم والاستزادة من العلماء العظماء هناك، وانتظمت الرحلات بشكل مستمر.

ث- وضعية البعثات العلمية الميزابية بتونس:

قد سبق وأن تحدثنا عن البعثات العلمية الميزابية التي كانت السباقة نحو تونس، وأنها كانت سببا في بعثات علمية متوالية عليها. ولكن تلك البعثات لم

ترسل عبر طريق مفروشة بالورود، فلقد لاقت في بداياتها الأولى مجموعة من الصعوبات والظروف القاسية.فبعد أن تم غلق المدرسة الصديقية بتبسة وتوجهت أول بعثة علمية نحو تونس، تحت قيادة الشيخ أبي اليقظان، واستمرت تلك البعثة لمدة عشرة أشهر لتعود للديار بسبب الظروف الأمنية الغير مستقرة بتونس جراء اندلاع الحرب العالمية الأولى، فعاد الشيخ أبي اليقظان الذي مكث في تونس لمدة سنتين، كانت عشرة أشهر منها في تسيير البعثة الميزابية هناك(72).

فاستقبلت هذه البعثة بحفاوة بالغة بمنطقة وادي ميزاب، ورحب بالشيخ أبي اليقظان ترحيب الأبطال نظرا للمجهودات التي قام بها من أجل تلاميذ البعثة، وقد رجع الشيخ أبي اليقظان وكله أمل في نشر التجربة الإصلاحية والنهضوية والعلمية التي أخذها من تونس، ومن جامع الزيتونة المعمور، ومن المدارس العصرية هناك، وبالفعل فقد أسس الشيخ أول مدرسة عصرية على نمط المدارس التونسية سنة 1915م، بدعم من رجال الإصلاح(73).

وتكونت في منطقة وادي ميزاب، وبالأخص منطقة القرارة، نخبة من طلبة العلم الذين تخرجوا من معهدي الشيخ الحاج عمر بن يحي، والشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، الذين أحبوا السفر نحو تونس من أجل الاستزادة من معين العلوم التي تقدمها المدارس العصرية التونسية، والانخراط في حلقات العلم بجامع الزيتونة، فطلبوا من الشيخ أبي اليقظان الرجوع نحو تونس على رأس بعثة علمية، وبالفعل استشار الشيخ أبو اليقظان معلمه الشيخ عمر بن يحي، وجملة من زعماء الإصلاح بمنقطة وادي ميزاب، وأشاروا عليه برئاسة البعثة العلمية والإشراف عنها.

وبعد أن أتم الشيخ أبو اليقظان المشاورات والاستعدادات انطلقت الكوكبة العلمية نحو تونس، وسافرت عبر الجمال من القرارة نحو مدينة تقرت، ثم ركبوا القطار من مدينة تقرت إلى غاية مدينة قسنطينة، ثم التوجه نحو تونس أيضاً عبر القطار، وكان وصولهم لتونس في سنة 1917م(74).

كانت نواة هذه البعثة العلمية الثانية مكونة من سبعة أشخاص في بادئ الأمر وهم:

- الشيخ أبو اليقظان
- يوسف بن بكير العطفاوي
- أبو إسحاق إبراهيم اطفيش
- صالح بن يحي
- صالح بن علي
- يحي بن باحمد سليماني
- عمر بن الحاج محمد بوحجام
- الناصر بن صالح ملالي
- عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء
- يوسف بن بكير حمو علي
- أحمد بن الحاج إبراهيم بن كاسي[75].

فكانت بداية البعثات العلمية الميزابية نحو تونس، ولكن الأمر الذي عكّر صفو هذه البعثات العلمية هي الحملة التي قامت ضد هؤلاء الشباب الذي يدعون لإصلاح التعليم والعديد من المجالات في الميدان الفكري والعلمي بمنطقة وادي ميزاب.

إذ أسفرت هذه المبادرة الجديدة التي لم يعتدها وادي ميزاب من قبل في مجال تكوين الأجيال الناشئة، والذين ساروا فيه دون أن يأخذوا الإذن والموافقة من المرجعيات الدينية والعلمية بوادي ميزاب، المتحكمة في مجريات الأمور، ولقد قاد هذه المعارضة مجموعة من الفقهاء والعزَّابة من تيار المحافظة والجمود والذين ساروا ضد تيار الإصلاح بمنطقة وادي ميزاب، وضد التوجه الجديد نحو الاستفادة من الحواضر العلمية المجاورة[76].

ولعل من أبرز الذرائع التي استندوا عليها في معارضتهم لهذه البعثات هي:

- صغر سن التلاميذ المتوجهين إلى تونس للتعلم، وابتعادهم عن أسرهم وعائلاتهم قبل استيفاء حظهم من التربية.
- مخالطتهم لبيئة مخالفة لبيئة وادي ميزاب في عوائدها وتقاليدها وأعرافها مما يؤثر عليهم سلبا، فيفسد طباعهم ويخرب أخلاقهم.

- تعلمهم علوما عصرية دنيوية غير شرعية، لا فائدة ترجى من ورائها، بل تحولهم ماديين وتزهدهم في دينهم.
- اتهام القائمين على البعثات العلمية بالانشغال عن مراقبة التلاميذ ورعايتهم بتكوين أنفسهم، وبشؤون السياسة والتجارة، وتلونهم بأفكار الأحزاب التي يناضلون فيها.

وتزامنت هذه الحملات مع مطلع العشرينيات، وبالذات بين سنتي 1920/1922م، أي بعد البعثة اليقظانية الثانية، مما جعل العديد من الآباء يستردون أبنائهم ويقطعونهم عن دراستهم استجابة للنداء المنبعث من المسجد ومن الهيئة العليا في ميزاب.

تأثر تلاميذ البعثة العلمية بتونس بهذه الإساءات التي كانت تصدر في حقهم، وذهلوا لما كان يروج عنهم هناك في منطقة وادي ميزاب، وحاولوا مسك أعصابهم وعدم الاندفاع وراء ردود الفعل والإشاعات المروجة عنهم(77)، فكان أوَّل رد من طرف مسؤولي البعثة، والمسؤول الأول عن البعثات العلمية الميزابية الشيخ أبي اليقظان، من خلال مقال منشور بجريدة الإقدام الجزائرية للأمير خالد، ثم توالت العديد من المقالات الأخرى كما يقول الشيخ أبي اليقظان بنفسه حول هذا الأمر: «**وكان جوابنا أن فتحنا عليهم حملة عشواء في الجرائد التونسية: الاتحاد، لسان الشعب، الأمة...**» (78)، ودافع الشيخ أبو إسحاق اطفيش أيضاً عن البعثة العلمية الذي كان أحد مسؤوليها بتونس، وحارب آفة الجمود وغيرها من آفات الجهل والانغلاق، ولم يعتبر الصراع صراعًا بين فئتين وإنما هو صراع بين العلم والجهل، والحق والباطل، والثبات والتطور.

فكان لهذا الصراع دور كبير في إكمال الشيخ اطفيش مع البعثة وإصراره على إبقائها، ومدها بالمعونة المادية والمعنوية والروحية، وقاوم حركة الجمود التي كانت ضدهم، لأنه رأى فيها معوقا من معوقات النهضة واعتبرها مثلها مثل الاستعمار والاستشراق والتبشير(79)، وقامت حركة المعارضة بإصدار كتابين، كان فيهما هجوم لاذع ضدَّ المسؤولين عن البعثات العلمية، والكتابان هما:

1- **إماطة اللثام على بعض اللئام**: للشيخ صالح لعلي
2- **البراهين القاصفة لمتتبعي الفلاسفة**: للشيخ صالح لعلي كذلك.

بعد إصدار هذين الكتابين اللذين احتويا نقدًا لاذعا وهجومًا صارخًا على الشباب، ناعتا إيَّاهم بأنكر الأوصاف، قام الشيخان أبو اليقظان وأبو إسحاق اطفيش بإصدار كتاب لكل منهما، يردان فيه وبمنهج محترم وبأسلوب علمي حول ما جاء في تلك الكتب السابقة وصد الاتهامات الموجهة لهم ولطلبة البعثة.

والكتابان هما:

1- **إرشاد الحائرين**: للشيخ أبي اليقظان
2- **الدعاية إلى سبيل المؤمنين**: للشيخ أبي إسحاق اطفيش

بعد هذه المعارك الطاحنة عبر صفحات الجرائد والكتب، والمساجلات التي وقعت طوال سنتين، انتهى الصراع بتفوق أصحاب الفكر الإصلاحي، ونجحوا في مشروعهم العلمي، وسارع الأولياء بعد ذلك في إرسال أبنائهم إلى تونس من أجل الانضمام في نظام البعثات العلمية(80).

حرص الشيخ أبو اليقظان في تونس وكل المشرفين على البعثة هناك، على السير الحسن لنظام البعثة، وسطروا برنامجا خاصا يسير عليه التلاميذ داخل دار البعثة وخارجها، واهتم الشيخ أبو اليقظان بالتربية الإسلامية لتلاميذ البعثة، فكان يقيم لهم الدروس القوية العميقة والمستمرة في الفقه الإسلامي، وكان يذكرهم بتلك الدروس في كل فرصة يجدها مناسبة، وقد ملأ تلاميذه بإيحائه القوي وبدروسه الدينية الدائمة، وأحاديثه الممتعة المفيدة، ملأهم بهذا بالدين وبالخلق الإسلامي، فغرس في نفوسهم كل الفضائل والخصال الحسنة والطيبة(81)، وكان رحمه الله مع لطفه وحنانه للتلاميذ، حازما وشديد اليقظة في مراقبة سلوكهم، لأنه كان مسؤولا عن تربيتهم الخلقية ودينهم فإذا رأى في تلميذ ما لا يليق يؤنبه ويحاول إقناعه، يستبقيه مع بعض زملائه إذا خرج التلاميذ إلى النزهة في الجمعة، فيؤنبه وإذا لم يجد فيه اللين يجلده ويحرمه من الخروج إلى النزهة، ولكن الجلد لا يقع إلا قليلا، ولقد كان التلاميذ يحبون شيخهم ورئيسهم أبا اليقظان(82).

واختار الشيخ أبا اليقظان فيما يخص البعثة العلمية الأولى المدرسة العربية العصرية التي كان يديرها الشيخ محمد صفر وهو خريج جامع الزيتونة، وكانت هذه المدرسة تعنى بتعليم اللغة العربية وعلومها وتحفيظها القرآن الكريم والحديث الشريف وتدريس العلوم العصرية واللغة الفرنسية،

واستمر تلاميذ البعثة في هذه المدرسة حوالي ثلاثة أشهر، وفي هذه المدرسة يذكر الشيخ إبراهيم بن بابا بوعروة أنه قرأ كتاب «قطر الندى وبل الصدى» مع شرحه على الأستاذ الشيخ عبد العزيز الباوندي، المدرس الرسمي للزيتونة، و اللغة الفرنسية على الأستاذين علي الرياحي، وصالح رضا الأحمر(83)، لينتقلوا بعدها إلى مدرسة السلام(84) التي تأسست حديثا، والتي كان يديرها الشيخ الشاذلي المورالي.

وضع الشيخ أبو اليقظان كل ثقته في الشيخ الشاذلي المورالي من أجل تعليم الفتية، مما جعل الشيخ أبي اليقظان يدعمه معنويا وماديا حيث تكفل بدفع إيجار مبنى المدرسة(85)، وبالإضافة إلى ما كان يدرَّس للتلاميذ في المدارس الأهلية التونسية، فإن دروسا وحصصا إضافية كانوا يتلقونها في دار البعثة، ففي مادة القرآن كان يتولى التدريس في بداية العشرينات الشيخ الفقيه علي بن يعقوب النفوسي، وفي الحديث كانوا يتلقون الأربعين النووية للإمام النووي، وفي العقيدة متن التوحيد الذي عربه أبو حفص عمر بن جميع من اللغة الأمازيغية للعربية، ويتولى ذلك رئيس البعثة الشيخ أبو إسحاق اطفيش، كما يتناولون بالحفظ المتون الأجرومية وألفية بن مالك في النحو وأرجوزة الرحبية في علم الميراث(86).

أما عن النظام داخل دار البعثة فلقد سطر الشيخ أبي اليقظان للتلاميذ برنامجا مكثفا بالأنشطة ومحكما في الأوقات وحازما في التربية، وكان هدفه من كل هذا هو الجمع بين التربية والتعليم وبناء الشخصية، والقيام بجميع الأشغال المنزلية والترفيه والرياضة(87)، فكانت دار البعثة عبارة عن خلية نحل عندما يكون الطلبة موجودون بها، فكان كل طالب أو مجموعة من الطلبة مكلفين بعمل معين(88)، وتكون قائمة الأسماء ونوع المهام قد حددت من طرف مسؤولي البعثة، وتلصق في مكان معين من دار البعثة، فهناك من يتكفلون بالطبخ، وهناك من يهتمون بالغسيل، وآخرون مكلفون بشراء لوازم الطبخ من خضر وغيرها، هكذا كانت توزع المهام بين الجميع من دون استثناء، في جو عائلي يسوده الود والأخوة، ويتعلم من خلالها الطلبة كل الأشغال المنزلية التي تنفعهم في مستقبلهم(89).

أمَّا عن الوضعية المالية للطلبة الميزابيين فقد تنوعت حالاتهم المادية حسب ثراء أو فقر كل عائلة من عائلات الطلبة، ونجد أن العشيرة كانت تتكفل بالطلبة الذين لم يكن لديهم أموال تكفيهم من أجل الذهاب إلى تونس والدراسة هناك، ونجد أيضاً بعض الأثرياء من التجار الميزابيين كانوا يتكفلون بمجموعة من الطلبة(90).

فنجد على سبيل المثال السيد يحي بن حمو الواهج(91)، الذي كان تاجرا في تونس، تحمَّل العديد من النفقات في مجال البعثات العلمية، وتكفل بنفقات الكثير من الطلبة الميزابيين أيام الأزمة الاقتصادية وانقطاع المدد عليهم، وكان رحمه الله على اتصال دائم مع أهالي الطلبة الميزابيين(92) في أوطانهم(93).

ففي رسالة قام بإرسالها الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي إلى الشيخ العساكر الحاج حم، يخبره فيها عن تحمل الأعباء المالية لبعض الطلبة الميزابيين، والوقوف معهم مهما كلف الأمر، ويخص بالذكر فيها أيضاً الشيخ يحي بن حمو الواهج في مساعدته للطلبة إذا احتاجوا إلى أي شيء، ومما جاء في الرسالة **«...وبالفعل بحثنا المسألة على ضوء الحالة في القرارة وسير التعليم فيها فتقرر بعد دراسة ساعات مايلي:**

1 **أفراد البعثة كلهم يجب أن يستمروا في التعليم إلى أن يثمروا ولو أدى ذلك إلى أن يستجدي لهم استجداء، إذ من المحال أن نجد أفرادا من أبنائنا تتوفر فيهم شروط الاستعداد مثلما توفرت في هؤلاء**

2 **أن يستقروا(94) أولا في المحل الذي يسكنه بالحاج بن عدون في العلي ريثما يوجد لهم الأخ الواهج محلا أليق.**

3 **أن يتولى الإشراف العام عليهم الأخ الواهج ويعينهم سيما إذا احتاجو أمرا...»**(95).

ونظرا للحالة الاقتصادية التي كان يعيشها الطلبة، فلقد كان هناك كراس خاصة لجميع المصاريف التي ينفقها الطلبة، أو المصاريف التي تدخل لهم، وكانوا يسجلون في هذا الكراس، كل صغيرة وكبيرة، وبشكل دقيق.

الخاتمة:

- حاول الاستعمار الفرنسي منذ دخوله إلى الجزائر طمس معالم الشخصية الوطنية والهوية الإسلامية والعربية والأمازيغية وتثبيت وزرع إنتاجات المدرسة الاستعمارية النصرانية في عقول ونفوس الجزائريين.
- لم تكن المدارس التي أنشأها الاستعمار في مختلف ربوع البلاد من أجل خدمة الرسالة التعليمية للجزائريين، وإنما كانت بصدد تكوين نخبة جزائرية مشبعة بالثقافة الفرنسية والغربية لخدمة أهدافه الاستعمارية المستقبلية في البلاد.
- بالرغم من كل الظروف التي مر بها الشعب الجزائري جرَّاء الاحتلال الفرنسي، إلا انه حاول التماسك والاستمرار في رسم معالم حياته الدينية والتعليمية بما توفر لديه من وسائل بسيطة، وهو ما رأيناه من مقاطعة للمدارس الفرنسية وانخراطهم في الكتاتيب والزوايا من أجل المحافظة على عقيدتهم الدينية ولغتهم العربية وانتمائهم الجزائري.
- تميزت منطقة وادي ميزاب بخصوصيتها المذهبية وأيضا بتماسكها الاجتماعي نظير وجود هيئة عليا دينية تتحكم في زمام الحياة الميزابية، وهو ما جعل الكثير من الأزمات الثقافية والاجتماعية التي أصابت المناطق الأخرى لم تأثر في منطقة ميزاب جراء الحاجز الاجتماعي والديني الذي كان عبارة عن صمام أمان لهذه المنطقة وهذا المجتمع.
- تعد الحركة النهضوية التي ابتدأت منذ عهد الشيخ أبي زكرياء يحيى الأفضلي (1714/1788م) وإلى غاية فترة الشيخ اطفيش قطب الأئمة (1821/1914م)، ذات تأثير على حركة الهجرة الميزابية إلى تونس وخاصة الهجرة العلمية .
- لقد كان التماسك الأخوي بين أهل منطقة تبسة المالكية وأهل وادي ميزاب الإباضية دور كبير في إنشاء أول مدرسة تعليمية عصرية بتبسة، والتي كانت سببا في النهضة العلمية فيها.
- كانت المدرسة الصديقية نواة للمدارس العصرية الأخرى التي توالت فيما بعد، وكانت بمثابة النواة الأولى للبعثات العلمية الميزابية إلى تونس، وهذه البعثات هي التي قدمت الكثير والكثير للنهضة الميزابية بشكل عام خلال العشرية الثانية من القرن العشرين.

إحالات الدراسة:

(1) . يحي بوعزيز: **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية(1830ـــ 1954)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1985، ص 66_67.

(2) . أحمد طالب الإبراهيمي: **من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية**، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972، ص 17.

(3) . رابح تركي: **الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر**، ط4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986، ص320.

(4) . ابو القاسم سعد الله، "كلمة الطلبة الجزائريين بالقاهرة في الذكرى الثالثة للثورة"، **مجلة الثقافة**، عدد 83، سبتمر، أكتوبر، الجزائر، 1984، ص 249.

(5) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: **معالم النهضة الإصلاحية عن اباضية الجزائر**، جمعية التراث، غرداية، ط1، 2011، ص-ص(76-77).

(6) . عبد القادر حلوش: **سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر**، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص-ص(134-135).

(7) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديث و ثورتها المباركة**، ج1، ص211.

(8) . صالح بن اعمر اسماوي: **العزَّابة ودورهم في المجتمع الاباضي بميزاب**، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، ط1، 2008، ج2، ص-ص(806-807).

(9) . عيسى بن محمد الشيخ بالحاج: **"الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر وبناء الشخصية العلمية"**، مجلة الحياة، العدد 17، اوت 2013م، المطبعة العربية، غرداية، 2013م، ص220.

(10) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص107.

(11) . صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج2، ص808.

(12) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص110.

(13) .الشيخ أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي المعروف بعمي يحي (ولد 1714م/توفي 1787)، ولد ببني يزقن، وتتلمذ على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي في جربة مدة اثنتي عشرة سنة، ثم سافر إلى مصر فلازم دروس المدرسة الإباضية فيها وجامع الأزهر، وكان صديقا ورفيقا للشيخ عمر بن رمضان التلاتي، وعند رجوعه إلى مزاب، تصدى للتدريس في المسجد، خلفا للشيخ الحاج أحمد النجار، في عهد كانت الجهالة عامة، وتخرج على يده الكثيرون، منهم الشيخ ضياء الدين الثميني، و الشيخ الحاج يوسف بن حمو و الشيخ الحاج إبراهيم بن بيحمان، ولم يتول المشيخة الرسمية في بني يزقن ولا رئاسة المجلس الأعلى للعزابة لوادي ميزاب، ويعتبر بحق مؤسس النهضة العلمية بوادي ميزاب. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، المطبعة العربية، ط2، 2006م، ص106.

=

=

(14) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص253.

(15) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(123-124).

(16) . جمعية التراث: **معجم مصطلحات الإباضية**، المطبعة العربية، غرداية، 1999م، ج4، ص967.

(17) . حمو والحاج اليزقني عدون (حي في 1808م)، من العلماء العاملين، تتلمذ على يد الشيخ أبي زكريا يحي بن صالح الأفضلي، وعلى العلامة الشيخ عبد العزيز الثميني، وكان ضمن مناصريه في حركة الإصلاح الاجتماعي بميزاب، وقد اختصه الشيخ الثميني بالمشورة في بعض الأحداث والملمات. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص260.

(18) . أبو يعقوب يوسف بن حمو ابن عدون (ولد: 1745م/توفي:1836م)، من علماء بني يسجن، و أوائل رجال النهضة العلمية الحديثة بميزاب، أخذ العلم عن الشيخ الأفضلي وعبد العزيز الثميني، واستخلفه الشيخ الثميني للتدريس في مكانه بمسجد بني يزقن، سافر إلى الحج سنة 1791م، ولما رجع أقام بمصر أربع سنوات، و إلتقى هناك مع فطاحل العلماء الأزهريين، وعاد إلى وطنه ميزاب ليتفرغ للتعليم والتأليف والإصلاح، وتولى رئاسة مجلس عزابة بني يزقن، وترك العديد من المؤلفات. ينظر: جمعية التراث: **معجم مصطلحات الإباضية**، ج4، ، ص1020.

(19) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(126-127).

(20) . الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني (ولد:1718م/ توفي:1808م)، ولد في بني يزقن، ختم القرآن الكريم في صباه، واشتغل بالعلم فلم يتح له منه حظ، ثم توجه نحو التجارة والفلاحة، ولكنه عاد للعلم مرة ثانية بعد أن تخطى عمره الثلاثين سنة، وكان ذلك عند رجوع الشيخ الأفضلي من جربة، فتلقى عنه العلم، ونبغ الشيخ الثميني في العلوم العربية وعلم الكلام وأصول الحديث والفقه والفلسفة والحساب، ثم اشتغل بالتدريس و التأليف وإحداث حركة فكرية كان لها أثر جليل بمنطقة ميزاب، ونصب شيخا بمسجد بني يزقن باتفاق عزابة القصور، عام 1787، و سمي رئيسا للمجلس الأعلى لوادي ميزاب، وكان له دور كبير في مجال الدعوة والإرشاد ومقاومة الجهل والفتن وإصلاح ذات البين. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(106-107).

(21) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة**، ج1، ص261.

(22) . بالحاج بن كاسي المعروف بالشيخ بالحاج (ولد: 1718/ توفي:1827م)، من علماء القرارة، أخذ العلم عن الشيخ الثميني والشيخ يوسف بن عدون والشيخ عبد الله بن عيسى في بني يزقن، تولى التدريس والوعظ في بلدته، كما حارب الفساد والجهل والعصبيات التي كانت متفشية بين بني جلدته، له مراسلات مع أهل عمان، وترك مكتبة زاخرة =

=

بالمخطوطات موجودة إلى حد اليوم في بلدته القرارة. ينظر: قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص132.

(23) . سليمان بن عيسى آل الشيخ (حي بين 1814-1848م)، من علماء وأبطال وادي ميزاب، تتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز الثميني، تولى التدريس والوعظ وخرّج الكثير من الطلبة الذين واصلوا المسيرة من بعده، كما كان خبير بشؤون الدفاع، فقام بتعليم الشباب الفنون الرياضية والعسكرية، وعينه أهالي ميزاب قائدا في بعض هجمات البدو عن المنطقة. ينظر: قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص132.

(24) . محمد بن سليمان بن ادريسو (ولد: 1831م/توفي: 1896م)، من علماء بني يزقن، تنكر المراجع الإباضية أنه كان تلميذا للشيخ الثميني ولكني من خلال النظر إلى تاريخ وفاة الشيخ الثميني وهي سنة 1808 وميلاد الشيخ ادريسو سنة 1831، يتبين لنا أنه لم يكن تلميذه، ولكنه كان معاصرا لتلاميذ الشيخ الثميني وخاصة قطب الأئمة الشيخ اطفيش عليه رحمة الله، ولقد أصيب عليه رحمة الله بالعمى ولكنه واصل مسيرة طلب العلم وتخرج على يديه العديد من العلماء الذين ناصروا الحركة الإصلاحية بميزاب، وتم نفيه رفقة قطب الأئمة إلى بلدة بنورة وأسَّس معهده هناك، وترك العديد من المؤلفات. ينظر: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، ج4، ص795.

(25) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(131-132).

(26) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(107-109).

(27) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج1، ص280.

(28) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص139.

(29) . محمد بن عيسى ابن عبد الله ازبار(حي في 1883م)، وهو من علماء بني يزقن، تتلمذ على يد علماء عصره بمسقط رأسه، ثم هاجر إلى المشرق للتزود من العلم والعلماء، ولما عاد عين شيخا على مسجد بني يزقن وتولى منصب مشيخة وادي ميزاب، وتصدى للتدريس في حلقة علم بالمسجد وأمَّهُ الطلبة من كل قرى ميزاب، واشتهر ببغضه الشديد للاستعمار ونشر في تلاميذه حب الحرية والمقاومة، ولقد تولى قيادة الدفاع عن البلد لما داهم العدو الفرنسي المدينة، وعين بعد ذلك قاضيا في بني يزقن سنة 1883م، ويعتبر أول قاضي للمحكمة الشرعية في المدينة، وترك خزانة بها أنفس المصادر والمخطوطات. ينظر: **معجم أعلام الإباضية**، ج4، ص822.

(30) . محمد بن عيسى ابن عبد الله ازبار(حي في 1883م)، وهو من علماء بني يزقن، تتلمذ على يد علماء عصره بمسقط رأسه، ثم هاجر إلى المشرق للتزود من العلم والعلماء، ولما عاد عين شيخا على مسجد بني يزقن وتولى منصب مشيخة وادي ميزاب، وتصدى للتدريس في حلقة علم بالمسجد وأمَّهُ الطلبة من كل قرى ميزاب، واشتهر ببغضه الشديد للاستعمار ونشر في تلاميذه حب الحرية والمقاومة، ولقد تولى قيادة الدفاع عن البلد لما داهم العدو

=

=

الفرنسي المدينة، وعين بعد ذلك قاضيا في بني يزقن سنة 1883م، ويعتبر أول قاضي للمحكمة الشرعية في المدينة، وترك خزانة بها أنفس المصادر والمخطوطات. ينظر: **معجم أعلام الإباضية**، ج4، ص822.

(31) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص177.

(32) . يحي بن بهون: رحلة القطب، ط1، غرداية، 2007م ، ص29.

(33) . الشيخ الحاج إبراهيم بن عيسى الابريكي(ولد: 1857/توفي:1911م)، ولد بمدينة القرارة، وكان أبوه تاجرا بمدينة الجلفة فأخذه معه إلى هناك فتعلم الفصاحة والشجاعة والفروسية في البادية، ثم بعد استظهاره للقرآن أرسله والده إلى معهد قطب الأئمة ببني يزقن، وأخذ العلم عن الشيخ اطفيش، ثم رجع الشيخ إلى مدينة القرارة فبدأ جهوده في ميدان التعليم والدعوة، ففتح معهده للتربية الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم والعلوم العربية والشرعية، وكان لهذا المعهد دور كبير في النهضة العلمية والإصلاحية في مدينة القرارة، وحمل هم الدعوة والإصلاح ومحاربة الفساد ودعاة الجمود بمنطقته القرارة، ودام الشيخ الابريكي واعظاً وعالماً ومرشداً موجهاً للأجيال، حتى توفاه الله، وترك خلفه عدد من الطلبة الذين حلموا مسيرة الإصلاح بعده. ينظر: محمد بن قاسم ناصر بوحجام: **حياة الشيخين الحاج إبراهيم الابريكي، الحاج عمر بن يحي رحمهما الله**، الأسبوع الثقافي الثالث، جمعية شباب القدماء (القرارة)، 1979م، ص-ص(3-9).

(34) . سليمان بن عبد الله بن يحي الباروني باشا (ولد: 1870م/ توفي:1940م)، يعد علم من أعلام العالم الإسلامي، وأحد زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة، ولد بجبل نفوسة بليبيا، ومن عائلة معروفة في العلم والسياسة والحكم، أخذ مبادئ العلم عن أبيه بجبل نفوسه، ثم توجه صوب جامع الزيتونة، ثم جامع الأزهر، ثم أرسله أبوه في سنة 1895م، إلى معهد القطب الشيخ اطفيش بوادي ميزاب، من أجل التكوين في العلوم الشرعية، ويعد الشيخ سليمان الباروني أحد أعلام الجهاد الليبي ضد المستعمر الإيطالي، وعالماً مسلماً حاول التوحيد بين الأهالي في ليبيا إباضية ومالكية و عرب وبربر، وله مساهمات متعددة في خدمة القضية العربية والإسلامية أيام كان الاستعمار الأوروبي يسطوا مرة تلو المرة عن البلدان الإسلامية، فكان سياسيا ومجاهداً و داعماً لكل حركات التحرر والجهاد، وله العديد من المقالات في الصحف وأسس المطبعة البارونية في مصر سنة 1906م، والتي أصدرت العديد من الكتب، وله تأليفات مهمة في عدة مجالات. ينظر: جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، ج3، ص-ص(426-430).

(35) . قاسم بن محمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(145-150).

(36) . صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج2، ص891.

(37) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص163.

(38) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص81.

=

=

(39) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص164.

(40) . قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص81.

(41) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(164-165).

(42) . نفسه، ص210.

(43) . محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائر المعروف بابن العنابي، ولد سنة 1775م، وكان على المذهب الحنفي، وأسرته قديمة في الجزائر، فلقد كان جده الأعلى حسين من المفتيين الأحناف في الجزائر، وكان جده حسين عالما جليلا وموسوعيا، ولقد كان رحمه الله ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة في العلم والوظائف الرسمية، والفقه الحنفي، ولقد كان لابن العنابي ثقافة واسعة وشاملة، وقد رشحه للوظائف الرسمية في الدولة هو مكانة أسرته ومنزلته العلمية، وتقلد منصب القضاء سنة 1808م، ثم في سنوات 1814/1816 أصبح نقيب أشراف مكة والمدينة، وكلف بالسفارة أيضاً في كثير من الأحيان، وهكذا لم يكن ابن العنابي عالما وفقيها فقط، وإنما كان دبلوماسيا ناجحا أيضاً، توفي رحمة الله سنة 1851م بالقاهرة. ينظر: أبو القاسم سعد الله: **رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي**، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990م، ص-ص (21-35).

(44) . حمدان من عثمان خوجة، (ولد: 1773م/1845م)، يعد من علماء الجزائر المصلحين، الذين دعوا إلى النهضة، وقارعوا الاستعمار بالقلم واللسان، وكان كاتبا سياسيا متميزا، وعالما دينيا بارعا، وتقلد وظيفة التدريس في الجامع الجديد حيث كان يدرس الحديث والتفسير، ولما منع من دخول الجزائر بعد سفره إلى باريس وتأليفه لكتاب " المرآة"، من أجل القضية الجزائرية، تولى الترجمة عند السلطان محمود، وتوفي بالأستانة بتركيا سنة 1845م. ينظر: حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تق-تع-تح: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص-ص(12-43).

(45) . محمد بن شوش: **التعليم في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1870)**، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بن يوسف تلمساني، جامعة بن يوسف بن خدة/ الجزائر، 2008/2007م، ص-ص (40-44).

(46) . محمد صالح ناصر: القيم الإسلامية في نظام التعليم بوادي ميزاب، المرجع السابق، ص 72.

(47) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 160

(48) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (79-80).

(49) . يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 163.

(50) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 80.

=

=

(51) . أحد أعلام مدينة تبسة المعروفين، كان قوي الشخصية شديد التمسك بدينه والغيرة عليه، شجاعا لا يخاف إلا الله، بعيد النظر مثقف العقل ويتقن العربية، ويعرف الفرنسية، شديد الحب للقراءة تأتيه الجرائد والمجلات التونسية وغيرها فيعكف عليها، وكل واسع العلم بالسياسة العالمية، وكان من زعماء الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى مع الدكتور محمد بن العربي والشيخ محمد بن رحال، وقد سافر مع الوفد الجزائري الذي ذهب إلى باريس في عام 1912م، ليطالب بإلغاء قانون التجنيد الإجباري، ويدافع عن حقوق الجزائريين لدى الحكومة الفرنسية، وأسس رفقة صديقه الحاج بكير العنق المدرسة الصديقية التي كانت من أول المدارس الجزائرية العصرية، ونتيجة نشاطه الكبير والعظيم حقد عليه الاستعمار وأعوانه، فاغتيل يوم 16 جويلية 1914م. ينظر: محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج2، المرجع السابق، ص-ص(266-267).

(52) .بكير بن إبراهيم بن عمر بن حمو العنق، الشهير بـ" أسد القرارة"، (ولد: 1868م/توفي: 1934م)، أخذ العلم بمسقط رأسه على الشيخ عمر بن يحي، وعن الحاج محمد بن الحاج قاسم، استظهر القران الكريم، ثم تنقل إلى معهد القطب اطفيش، فكان من أبرز تلاميذه، اشتغل بعد مرحلة التعلم بالتجارة بمدينة تبسة، ثم التحق بسلك العزَّابة، وبعد وفاة الحاج إبراهيم بن يحي عين رئيسا للعزَّابة، ويعتبر من أعيان القرارة الذين استعان بهم الشيخ بيوض في حركته الإصلاحية، وترأس العديد من التجمعات السرية بالقرارة، وله علاقات وطيدة مع زعماء النهضة خارج ميزاب كعبد العزيز الثعالبي والأمير خالد وشكيب أرسلان، وأسس رفقة صديقه عباس بن حمانة المدرسة الصديقية بتبسة، وكان الاستعمار الفرنسي يضايقه كثيرا، وسجنه سبع مرات، وفرض عليه الكثير من الغرامات المالية، من أجل التقليل من نشاطه ولكنه لم يتزعزع واستمر بعطائه حتى وافاه الأجل. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، ص-ص(181-183).

(53) . Amal N. Ghazal: "TENSIONS OF NATIONOMISM : THE MZABI STUDENT MISSIONS IN TUNIS AND THE POLITICS OF ANTICOLONIALISM", int. J. Middle East Studies,47, 2015, p50.

(54) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج2، المرجع السابق، ص 268.

(55) . عمر بن يحي المليكي القراري، الشهير بـ" نور القلب" (ولد: 1858م/توفي: 1921)، ولد ببلدة القرارة ودخل الكتاب بمسقط رأسه، وهو بن ست سنوات، فحفظ القرآن الكريم، أخذ بعض العلوم على يد مشايخه بالقرارة كالشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود، ثم انتقل إلى غرداية سنة 1891م، ودرس على الشيخ بابكر بن الحاج مسعود، ثم أكمل دراسته العليا على الشيخ اطفيش قطب الأئمة ببني يزقن وتخرج سنة 1896م، ثم أسس مدرسة بالقرارة في سنة 1896م، فتصدر لتعليم أبناء المنطقة في شتى العلوم، فكان إماما وواعظا ومصلحا، ثم أصبح شيخا للقرارة بعد وفاة شيخه الحاج إبراهيم الابريكي في سنة 1911م، =

=

وكان يرسل بعثات علمية إلى شيخه اطفيش ببني يزقن، وبعد وفاة القطب توجهت تلك البعثات صوب تونس ابتداء من سنة 1916م، كان عضوا بارزا في الجمعية السرية بميزاب، التي تعتبر من فروع الجامعة الإسلامية بتركيا خلال الحرب العالمية الأولى، ولقد سجن وعذب من طرف الاستعمار، ولقد تخرج على يديه أبرز الشخصيات العلمية التي قادت النهضة الإصلاحية بوادي ميزاب بعده. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص(654-655).

(56) . محمد الأمين بلغيث: **فصول في تاريخ الجزائر المعاصر**، بحث غير منشور (مخ)، ص-ص (120-121).

(57) . محمد علي دبُّوز: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، ج2، المرجع السابق، ص 268.

(58) . محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص 122.

(59) . لقد جلب المشرفين على المدرسة الصديقية معلمين ماهرين من تونس وهما: الأستاذ أحمد بن صالح، والأستاذ: محمود بن محمد، حيث كان الأول للغة العربية، وأما الثاني فكان للغة الفرنسية، وأما فيما يخص القرآن الكريم فلقد كان الشيخ والعالم المكي بن علي، وهو من الوجهاء والعلماء بمنطقة تبسة، ينظر: محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص121.

(60) . الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 134.

(61) . محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص127.

(62) . نفسه

(63) . جريدة من اشهر الجرائد التونسية، صدرت بتونس لصاحبها الشيخ عبد الرحمن الصنادلي سنة 1890م، وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه محمد الصنادلي، وقد صدرت يومية، وأسبوعية ونصف أسبوعية، وعرفت الإيقاف الاضطراري والاختياري، وهي ذات طابع وطني سياسي، احتجبت في بداية عهد استقلال تونس. ينظر: أبي اليقظان إبراهيم عيسى: تاريخ صحف أبي اليقظان، المصدر السابق، ص11.

(64) . محمد علي دبُّوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المرجع السابق، ص 273.

(65) . محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص 128.

(66) . إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان، (ولد: 1888م/توفي: 1973م)، من العلماء الأعلام في القرارة بميزاب، تعدت شهرته الحدود الوطنية، بدأ مشواره العلمي بالكتاب بمسقط رأسه بالقرارة، واستظهر القرآن عند الشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، ثم درس في معهد الشيخ عمر بن يحي، ثم انتقل للدراسة بمعهد القطب اطفيش ببني يزقن سنة 1907م، وكان من أبرز تلامذته، وكان قد رافقه في الدراسة بالمعهد في هاته الفترة كل من الشيخ أبو إسحاق اطفيش، والشيخ سليمان الباروني، ولقد كان تواقا للسفر نحو تونس وبالفعل تمكن

=

=

من ذلك سنة 1912م، وانتسب للزيتونة، ثم ترأس أول بعثة علمية ميزابية بتونس سنة 1914م، وعاد في بداية الحرب العالمية الأولى إلى ميزاب، وبعدها ترأس البعثة مرة أخرى من سنة 1917-1925م، ثم عاد إلى ميزاب ووقف بجانب الشيخ إبراهيم بيوض في حركته الإصلاحية، ولقد كان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويعتبر الشيخ أبو اليقظان شيخ الصحافة الجزائرية، حيث أصدر ثماني جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، فيما بين 1926-1938م، ولقد ترك الشيخ أبو اليقظان تراثا علميا وفكريا عاما، وتربو مؤلفاته عن 60 مؤلفا في شتى الفنون والعلوم، أصيب بالشلل النصفي سنة 1957م، ولكنه استمر بالعطاء والنشاط العلمي والثقافي، إلى أن وافته المنية بمسقط رأسه بالقرارة. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، (52-56).

(67) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (569-570).

(68) . عبد القادر قوبع: **الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954م**، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف: مولود عويمر، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 63.

(69) . محمد الصالح الجابري: **النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص 34.

(70) . للتوسع والاطلاع أكثر حول دور جامع الزيتونة في الحياة الفكرية والعلمية والنهضة الإصلاحية بالجزائر ينظر: رابح فلاحي: **جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر 1908-1954م**، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري- قسنطينة، 2007-2008م.

(71) . علي بن حراث: المرجع السابق، ص6.

(72) . محمد ناصر بوحجام: **أبو اليقظان في الدوريات العربية**، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، 1985م، ص46.

(73) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص574.

(74) . محمد علي دبُّوز: **أعلام الإصلاح في الجزائر**، ج3، المصدر السابق، ص222.

(75) . أحمد بن حمو كروم: **العلامة الجليل يوسف بن بكير حمو علي (1887-1984)**، نشر جمعية الأمل للتربية والثقافة، غرداية، 1995م، ص14.

(76) . للتوسع أكثر حول العوائق والصعوبات التي واجهت البعثات العلمية الميزابية لتونس، ينظر: مصطفى بن الحاج بكير حمودة: **"البعثة العلمية بتونس: أهداف وعوائق"**، مجلة الحياة، ع:17، أوت 2013م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية.

(77) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(589-592).

=

=

(78) . أبي اليقظان إبراهيم عيسى: **تاريخ صحف أبي اليقظان**، المصدر السابق، ص13.

(79) . محمد ناصر: **الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي**، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م، ص-ص(85-86).

(80) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص594.

(81) . محمد علي دبُّوز: **أعلام الإصلاح بالجزائر**، ج3، المصدر السابق، ص 156.

(82) . نفسه، ص177.

(83) . حمو بن عمر فخار: **إبراهيم بن بابا بوعروة حياته وآثاره**، تق: مصطفى صالح باجو، د.ط، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، 2003م، ص44.

(84) . بالإضافة إلى هذه المدارس العصرية التونسية، فلقد انخرط الطلبة الميزابيون أيضا في المدرسة الصادقية وأيضاً المدرسة الخلدونية وهما مدرستان عصريتان ذو شهرة واسعة في تونس.

(85) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص573.

(86) . الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 136.

(87) . قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص(572-573).

(88) . خلال زيارة للجزائر العاصمة في 2014/10/15، كانت لي زيارة لإقامة طلابية للميزابيين، تسمى "إقامة الثانويين"، وهي إقامة خاصة بطلاب المرحلة الثانوية للطلبة الميزابيين المتواجدين بالعاصمة، وهي داخلية، تسع ما يقارب 20 طالبا، وبها نظام محكم وحازم، ويسيرها قيم على الإقامة يهتم بجميع شؤون الطلبة، وكل الطلبة لديهم مهام معينة يكلفون بها من أجل السير الحسن لنظام الإقامة، وهي مقتبسة من نظام دار البعثات العلمية للميزابيين بتونس.

(89) . لقاء شفوي مع الشيخ يحي أبي اليقظان، يوم 31 ديسمبر 2013م، ببيت الشيخ صالح باجو، بالقرارة.

(90) . لقاء مع الشيخ صالح باجو، المصدر السابق.

(91) . يحي بن حمو الواهج: (ولد: 1900/ توفي: 1995)، من أعلام مدينة بريان البارزين، عرف بالسخاء والانضباط وروح المبادة، اشتغل بالتجارة في تونس فكان الأب السخي للبعثة الميزابية، وقد تكفل بنفقات الكثير منهم أيام الأزمة الاقتصادية وانقطاع المدد، عمل مع أعضاء الحكومة المؤقتة بتونس منذ سنة 1955م، وكان مكلفا بتبليغ المصالح والملفات، ونقل الرسائل بين الحكومة المؤقتة بتونس والولايات الجزائرية المختلفة. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص960.

(92) . رسالة مرسلة إلى الشيخ يحي بن حمو الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م. سلمت لنا من طرف يوسف الواهج، ابن الشيخ يحي الواهج.

=

=

(93) . جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص960.، لقاء شفوي مع الشيخ صالح باجو، المصدر السابق.

(94) . ويقصد هنا ثلاثة طلبة جدد سوف يتنقلون إلى تونس للانضمام إلى صفوف البعثة العلمية الميزابية بتونس، وهم: ابن زايد يوسف، الأطرش إبراهيم، ومحمد العساكر، وهذا الأخير سوف يصبح رئيس البعثة العلمية هناك بتونس.

(95) . عبد الرحمن بن عمر بكلي: **جمهرة رسائل البكري**، نشر مكتبة البكري، المطبعة العربية، غرداية، 2007م، ص-ص(178-179).